تقويض الخطاب السلطوي في رواية "دمية النار" لبشير مفتي"

Undermining the authoritarian discourse in the novel "The Fire Doll" by Bashir Mufti

د(ة). زينب خوجة *

تاريخ الإرسال: 2024/03/20	تاريخ القبول: 2024/05/22	تاريخ النشر: 2024/12/20

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تفكيك الخطاب السلطوي في رواية دمية النار "لبشير مفتي" محاولة تغيير النظام الاجتماعي، وكذلك إثبات الهوية ومنح الأنا /العربية الجزائرية سلطة في تمثيل الآخر وسلطة في السرد، ولهذا وجب علينا الرجوع إلى بداية تشكّل الدولة الجزائرية المستقلة بعد الاستقلال والبحث عن الترسبات التي شكّلت تلك الأوضاع الكارثية التي آل إليها المجتمع الجزائري بعد الاستقلال.

الكلمات المفتاحية: تقويض، الهوية، السلطة، الخطاب.

Summary

This study seeks to dismantle the authoritarian discourse in Bashir Mufti's novel The Doll of Fire, an attempt to change the social system, as well as proving identity and granting the Algerian Arab ego authority in representing the other and authority in the narrative. For this reason, we must return to the beginning of the formation of the independent Algerian state after independence and search for The sediments that formed the disastrous conditions that Algerian society turned into after independence.

Keywords: Undermining, identity, authority, discourse.

---

*زينب خوجة، مخبر البحث: الدراسات الاجتماعية اللغوية، الاجتماعية التعليمية والاجتماعية الأدبية. جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، الجزائر

zineb.khoudja@uni-jijle.dz

*** *** ***

المؤلف المرسل: زينب خوجة nouharitaj92@gmail.com

تقديم

يذهب بنا الروائي بشير مفتي" في روايته "دمية النار"، إلى الزمن الأول "لجزائر ما بعد الاستقلال، يروي لنا تفاصيل بناء الدولة الجزائرية المستقلة، بنوع من الحذر والجرأة، يتداخل المتخيل مع الواقع والحاضر بالماضي ليكوّن لنا رائعة أدبية، كاشفاً من خلالها عن المناطق المعتّمة في ذلك الماضي البعيد، وعن الأوضاع العامة للواقع وللمجتمع الجزائري ككل.

يتخذ " بشير مفتي" من السرد أداة للرجوع إلى الماضي، مؤكداً مدى أهمية دور التخييل الروائي في كتابة التواريخ المنسية، وتواريخ المهمشين والمقموعين والمنسيين، ففي مقابل سرد السلطة وهيمنتها ينبثق سرداً مضاداً يسعى إلى رفضها وتقويضها ونقدها، حيث تنبعث الأصوات المنسية والمقموعة من هاوية نسيانها، وهذا ما يؤدي إلى صياغة خطاب مضاد لخطاب السلطة، يقوّضه ويخلق حالة تأزم واضحة في هدم السلطة.

جاءت الرواية مليئة بهاجس فلسفي وبخاصة فلسفة القيم الأخلاقية والاجتماعية، فاشتغلت بذلك على ذات الانسان، وأرادت فضح كل أشكال الفساد الذي جثم على الراهن اليومي للإنسان الجزائري المعاصر، وهو يعيش حالة الضياع والاغتراب والخوف والفقر والبطالة واللاإنتماء والاستغلال في زمن سادت فيه سلطة ديكتاتورية كانت مهنتها الفساد السياسي والأخلاقي، وهي بهذا تحوّل الفرد إلى مسخ، مادة بلا روح، حيث جرّدتها من قيمها ومثلها العليا وجعلتها آلة تستخدمها كيفما تشاء..

تركز رواية "دمية النار" على صراعين مختلفين، فالصراع الأول تمثله الذات مع ذاتها فكما هو معلوم أنّ الرواية الجزائرية المعاصرة في الألفية الثالثة قد انتقلت من معالجة ثنائية الذات/الراهن، الاهتمام بقضايا الذات في علاقتها بالذات، ذاتها أحيانا داخل صراع فردي ينبني في إطار الرواية السير ذاتية، فنجد أنّ هذه الأنا في حالة قلق وضياع دائمين، وكأننا أمام شخصين وتمثّل لنا شخصية **"رضا شاوش"** هذا القلق والتناقض داخل ذات الشخصية البطلة، مما يجلعها تعيش حالة من التيه والضياع – وهي سمات الإنسان المعاصر - في مقابل

هذا الصراع الداخلي الذي تمثّله الذات مع ذاتها، يبرز صراع ثاني تمثّله الذات مع الآخر، وكما رأينا سابقاً أنّ الحديث عن الذات دائما يستدعي الآخر، لأنّ الإجابة عن السؤال من أنا؟ يقتضي بالضرورة البحث عن إجابة لسؤال من هو الآخر الذي لست أنا؟ وهكذا تسعى رواية "دمية النار" في إطار هذه الورقة البحثية إلى تناول هذين الصراعين وذلك بالعودة إلى بداية تشكّل الدولة الجزائرية المستقلة بعد الاستقلال والبحث عن الترسبات التي شكّلت تلك الأوضاع الكارثية التي آل إليها المجتمع الجزائري بعد الاستقلال.

أولاً: انشقاق الأنا واستبداد الآخر

إنّ الحديث عن تذبذب وانشقاق الأنا واستبداد الآخر، هو حديث يؤكد إيديولوجية علاقات اجتماعية وثقافية وطبقية معقدّة، بين ذات مستلَبة تبحث عن حقوقها المتمثلة في إرثها المادي والثقافي والاقتصادي، و"آخر" مستبِد مراوغ، يفرض علاقة القهر والتسلط، ويمارس الطرد والنهب والاغتصاب. ووفق هذه الثنائية تطرح "دمية النار" ذلك المأزق الانطولوجي بين الذات التي يمثلها " رضا شاوش" هذه الذات المنسية المقموعة المهمشة وبين الآخر الذي تمثله السلطة بكل جبروتها واستبدادها وقوتها. نحن إذن هنا بصدد مساءلة علاقات معقدة ليس في إيديولوجيتها فحسب بل في امتدادها على المستوى المادي والثقافي، فهي علاقات بين كيانين غير متماثلين في الماهية.

في فترة الحروب والاستبداد والانقلابات السياسية، تنقسم الذوات إلى قسمين اثنين، ذات مقهورة مهمشة، تبقى في وضع البحث عن آلية وطريقة تعيد لها هويتها وكيانها، وفي مرحلة البحث تنمو داخلها أفكار متعلقة بالانتماء الوطني والعقائدي، فضلاً عن رغبتها الحقيقية في التحرر من القيود الإيديولوجية، ولكن وبفعل الآخر وسيطرته تقع الذات أسيرة لأفكاره وعقائده وإيديولوجيته، مما يحث انشقاق على مستوى الذات، فهي تعيش في محاولة للهروب من هذا الآخر ولكنها تجد نفسها تعيش وسطه وتتقبله، فالذات هنا تعيش حالة صراع حاد وينتقل هذا الصراع بين الذات والآخر إلى صراع بين الذات والذات، وبالتالي تنعدم فاعليتها، لأنها تتماهي في الآخر، وتتحول الذات هنا إلى نسخ متكررة لنماذج تسبقها، وهكذا يحقق الآخر غاياته واهدافه، في حين تبقى الذات تعيش حالة التهميش والإقصاء والتدمير.

تجسّد لنا شخصية "رضا شاوش" القلق الوجودي للإنسان المعاصر، فهذه الذات تعيش حالة شرخ كبير، كما انها تمثّل لنا في فترات تحوّلها تلك الفترات الزمنية لجزائر ما بعد الاستقلال، فهذه الشخصية تعيش حالة التحوّل من الإيجاب إلى السلب، من الهدوء إلى الضجيج، من الانتماء إلى الضياع، من السلم إلى الحرب، وهو ما يجسّد وضع الجزائر على فترات متقطّعة من تولي الرئيس السابق "هواري بومدين" مقاليد الحكم إلى وفاته إلى فترة الرئيس الشاذلي بن جديد، ثم العشرية السوداء، بكل سوداويتها. فشخصيته تمثّل لنا ذلك المأزق الوجودي للإنسان المعاصر، حيث يجد نفسه في فترة ضعف يعيش حالة تحوّل رهيب، يفقد البطل فيها كينونته وقيمه العليا، ويفقد ذلك الصفاء الذي كان يعيشه وهذا ما جاء به في الرواية" روحي فقدتها في تلك البرهة من الزمن، في ذلك الزمن اللازمني، كيف أصفه حقاً؟.....، صرت أنا ولست أنا، صار الخيط الرابط بين الأول والثاني معدوماً، ولم يعد وجهي يحيل على وجهي"[1].

تكمن هنا نقطة الانكسار التي يفقد فيها البطل ذاته، وكينونته، فهو لم يعد يعرف نفسه ولا حتى وجهه وكأن ذاته تحيل على شخص آخر ليس هو، لقد تعرّضت شخصية " رضا شاوش" لإنشقاق وتذبذب على مستوى القيم مما أدّى إلى تحوّلها من شخصية مسالمة تحب الشعر وتقرأ الأدب إلى شخصية دموية شريرة تسعى إلى الشر وتنشره أينما كانت، " صرت الشرّ ودمية الشر، صرت الشيطان ودمية الشيطان، صرت تلك النار اللاهبة والمستعرة، النار الحارقة والمسعورة، صرت مثل دمية النار، تحرق من يمسكها، صرت اللاشيء الفارغ من أي معنى والذي لن يعيش إلاّ عندما يقدّر على مص دماء الأبرياء الذين يواجههم"[2]، تغرق الذات في العماء الكلي، وتفقد ذاتها وكينونتها بسبب استبداد الآخر، من خلال هذا التصريح يفضح الروائي ذلك الراكد عنه في التاريخ الجزائري، فالسلطة التي من المفروض أنها تكون في خدمة وبناء الشعب والدولة، كانت دمارا شاملا لأفرادها، إنّ هذا التحوّل الذي أصاب شخصية البطل هو نتيجة النزعة التدميرية التي تبنّتها السلطة أنداك، سلطة في عنفها وغرابتها واستبدادها تفوق خيال الروائي،"حيث يتم الانفلات من واقعيتها بعنف المتخيل الذي يحوّل الواقع إلى شظايا وكوابيس مدمرة للذات والرؤية، بحيث لا يتبقى من الواقع سوى آثار علامات

منقوشة في صيرورة المحو. سلطة من فرط تسلطها وانتشارها لا تحضر في النص سوى في صورة أشباح **كافكا**، موغلة في سديميتها وفي أسطوريتها"[3].

فهذه السلطة تصوّرها الرواية كجهاز آلي تديره قوى خفية خارقة غير مرئية، وكأننا امام رواية خيالية أو مسرحية من العهد اليوناني او الروماني حيث كانت للآلهة مكانة بارزة، إنّ هذه السلطة وفي سياستها تشبه تلك الآلهة فهي غير مرئية ولا أحد يعلم بوجودها ولا بتفاصيلها، إلاّ أنّ قراراتها تسعى إلى تدمير البلاد قبل العباد، ويأتي هذا التصريح في الرواية ليكشف لنا ذلك التفكك بين السلطة والرعية، فالسلطة والتي ورد اسمهما في الرواية بتسميات مختلفة تحيل مثل الجهاز والنظام والسيستام والمنظمة وغيرها من المسميات التي تحيل على امور سلبية، فهذه التسميات دائماً تطلق على تلك الجماعات المخالفة للقانون، مثل المنظمات الإرهابية وعصابات المافيا وغيرها، وهذه التسمية كانت اسقاط حقيقياً على السلطة في تلك الفترة، حتى أنّ السلطة تسمي نفسها بهذه التسميات، " لقد بدأت الامور هكذا بعد الاستقلال، التقينا، وتحدثنا، وكانت الفكرة تأسيس جماعة في الظل تحمي البلاد وتسيرها من خلف الستار"[4]، إلاّ أنّ هذه الجماعة كانت هدفها الخفي والمضمر هو حماية مصالحها، ويعترف أحد أفرادها بهذا لبطل الرواية " رضا شاوش" لماذا سارت الأشياء بعدها عكس ذلك؟ لقد حاربنا في البداية المعارضين العملاء للإمبريالية، ولكننا أصبحنا العملاء، نحن من يخدم مصالحهم، ونسيرها لهم ونأخذ بعض الفتات"[5]، يفضح الروائي سياسة الدولة المزعومة، ويفضح فكرة الاستقلال المزعوم، فالولاء للإمبريالية والعمل على تحقيق مصالحها هو الهدف من وراء تأسيس تلك المنظمة او الجهاز، وأنّ الاستعمار الحقيقي بدأ بعد الخامس من جويلية 1962، فالاستعمار الذي خرج من الباب قد ترك أبناءه وأفكاره كعروق متجدرة في أرض هذا الوطن، ودون الخوض في الأمور السياسية التي يعرفها أغلب الشعب الجزائري والتي لم تبق امور مسكوت عنها، فالتاريخ والاحداث التي اعقبت الاستقلال كانت كفيلة لتكشف المستور وتزيح اللثام على تلك المضمرات التي أدخلت البلاد في دهاليز مظلمة مازلنا نتجرع ألمها إلى يومنا هذا. تعرّي الرواية ذلك التاريخ المزيف، وتبيّن لنا أن تلك السلطة التي كانت تضرب بيد من حديد كل من تسوّل له نفسه المساس بكرامتها وأمنها انها كانت عميلة للإمبريالية، وأنّ

منظمو هذا الجهاز ما هم إلاّ أبناء فرنسا تركتهم لتحمي مصالحها وتخدم أغراضها، إنّها النزعة التدميرية للذات الجزائرية، ويمثّل لنا الروائي هذا الأمر من خلال شخصية " عمي العربي" هذه الشخصية الإيجابية، حيث كانت هذه الذات معارضة للنظام ووفية لمعارضتها ومبادئها، ولكنه دفع هذا ثمناً غالياً، لقد استطاع الروائي أن يقدّم لنا من خلال شخصية " عمي العربي" تلك الذات المتمردة على النظام السلطوي المتمسكة بمبادئها حتى آخر رمق في حياتها، فهذه الشخصية تميزت بنوع من الجرأة وعدم الخوف، والإيمان بمبادئها، فقد كان " عمي العربي " يتكلم عن الزعيم بطريقة فيها النقد اللاذع والسخرية الحقودة: بومدين هو قمة الغرور التي تصنعه عظمة القوة لتكسر عظمة الشعوب"[8]، وهذا الوعي ناتج من إيمانه القوي بأنّ النظام يسير في اتجاه خطأ وأنه سيزج بالبلاد في دهاليز وسراديب مظلمة، ستبقى آثارها إلى يوم يبعثون.

كما لا ننسى المقولة الشعبية الشهيرة والتي يتداولها العام قبل الخاص، ان في عهد الرئيس " هواري بومدين" لا أحد يملك حق الكلام، والذي تخوّل له نفسه بالكلام سيكون الموت هو جزاءه، فقد وصف هذا الرئيس بالديكتاتور، ووصفت المرحلة التي تولّها بأنها من مرحلة ديكتاتورية، ورسم لنا الخطاب الروائي حقيقة هذه المقولة حيث تمثّل شخصية " عمي العربي" صدق هذه المقولة، وتعريّ الرواية أيضا ذلك التسلط والاستبداد الذي فرضته السلطة على أفراد المجتمع خاصة من المعارضين لهذا النظام شخصية " والد سعيد بن عزوز".

تعكس لنا هذه الرواية تاريخاً مضاداً للتاريخ الذي تبسطه السلطة، فالروائي يتخذ من أسلوب الحفر أسلوباً يخوص به في الماضي وبالضبط بداية تشكل الدولة الجزائرية المستقلة، ويؤكد الروائي من خلال هذا الخطاب دور التخييل الروائي في كتابة التواريخ المنسية، وتشخيص الأصوات المقموعة، ففي مقابل سرد السلطة الذي يبسط تاريخاً احادياً للحدث " الثورة" كما يمثله محكي الأب والاخ وسعيد بن عزوز والنظام، بوصفه التاريخ الحقيقي، تاريخ الأمة، تنتج الرواية سرداً انبثاقياً انتهاكيا، يزرع التشكيك والتفكك في خطاب السلطة، كما يمثّله محكي عمي العربي، الجماعة التي تنشط في الخفاء ضد النظام، رضا شاوش ولكن في بداية حياته، حيث تنبثق الأصوات المقموعة من هاوية نسيانها، بما يغير شروط الخطاب الذي

صاغته سلطة الماضي"[10] لقد استطاع الروائي ان يتجاوز تلك النظرة الرومانسية، حيث راح يكشف الجانب المظلم والمسكوت عنه والتاريخ المهمش حول الثورة والاستقلال وبدايات تشكّل الدولة الجزائرية المستقلة. فالذات هنا تضطر إلى تأكيد ذاتها من خلال إنكار قيمة الآخر، ورفض مبادئه وأسسه وقوانينه، والاستهانة به وبمنجزاته، وهذا تصوّر انفعالي سرعان ما يصطدم بأرض الواقع الذي اثبت عكس ذلك، فالجماعة اليسارية التي كانت تنشط في الخفاء، كانت في بدايتها تسعى إلى تغيير الأوضاع السائدة في البلد حيث كانت تنشط ضد النظام، " جماعة صغيرة من الشباب الذين يدرسون في الجامعة، طلاب حقوق وفلسفة وللغة فرنسية، يجتمعون سرا في أحد البيوت، يتكلمون بلغة لم أكن أفهمها حينها، كانت تبدو مثل شيفرات سرية، يعلمونك الحذر، وعدم الثقة بأي أحد، والحلم بتغيير الممكن"[11]، تمثّل لنا هذه الجماعة في هذه المرحلة الصورة النقيضة للنظام، بحيث انها فضّلت المواجهة بدل الصمت، ورفضت أوضاع التهميش والفساد التي طالت البلد والمجتمع، فقد كانت هذه الجماعة تمثّل نموذجاً نقيضاً للاستسلام والقبول بالواقع، إلاّ انّ هذه الجماعة سرعان ما اصطدمت بالواقع، وراح اغلبها يسير في فلك الجهاز، ومن لم يسر أُعتقل وسُجن وعُذّب. تقدمّ هذه الجماعة نموذجاً لسيطرة واستبداد السلطة، من خلال منع المعارضة والاستفراد بسياسة " الحزب الواحد.

إنّ هذه الأوضاع تخلق في الذات صداماً كبيراً، وأزمات نفسية تطفو على السطح على شكل تغيرات وتحولات، وقد شكّلت لنا شخصية "رضا شاوش" هذا المأزق وهذا الصراع الذي خلقته السلطة بطريقتها في تسيير شؤون البلاد والعباد، فالآخر الذي تمثله السلطة يحاول قدر المستطاع فرض هيمنته واستبداده، وفرض قوانينه، وكما بيّنت "جينيالوجيا نيتشة تشكل عملية كتابة التاريخ وميراث الذاكرة إحدى مرتكزات السلطة في تأسيس شرعيتها والحفاظ على نفوذها، حيث تقوم بترسيم الخطوط الحمراء لما يقال وما لا يقال، ما يكتب وما لا يكتب"[14]، " فالسلطة او النظام تسعى للحفاظ على خطابها، حتى وإن كان مزيفاً، ذلك انّ المساس بالثورة وخطابها يعد إخلالا كبيرا يمس نظام الحكم والبلد، إلاّ انه في حقيقة الأمر يمسّ أصحاب السلطة وفقد لذلك يسعى النظام إلى فرض هيمنته وفرض أي خطاب يعارض الخطاب

الاحادي المتمثل في "الثورة"، فالثورة تمثّل ذلك المقدس الذي لا يمكن المساس به، والذي تأخذ السلطة منه شرعيتها واستمرارها، "لكن رجال الثورة تحوّلوا بقدرة قادر إلى رجال الثروة لاحقاً، وقسموا البلد إلى قسمين: قسم نافع يعيشون فيه ويتبخترون في نعيمه، وقسم فاسد تركوه ينتحر في فوضى أزماته اليومية، وينتحر غرقاً في بؤسه الاجتماعي والمادي والأخلاقي على السواء"[17]، فالنص الروائي من خلال هذه الملفوظات التي تطفو على السطح يبرز لنا الظلام والعماء الكلي الذي غرقت فيه السلطة، إذ يصل استبدادها إلى منتهاه من خلال الاستغلال البشع للثورة وذلك في فرض روايتها للتاريخ وإقصاء المعارضين باسم "شرعية الثورة ومشروعيتها"، كما لحظنا ذلك من خلال شخصيات "عمي العربي" و"والد سعيد من عزوز" فأحدهما أكلت الطير من رأسه والآخر عذّب وشُرّد وسُحبت منه حياته ومهنته. وتتخذ السلطة من استراتيجية الكذب والنفاق آلية لتكمل سيرها واستبدادها، حيث تخلق لها عالماً موازياً هو عالم "الصحافة" وتستغله في نشر الأكاذيب حول تطور الدولة والمجتمع.

يقدّم لنا الروائي عالم متناقض تمامًا مع العالم الذي تصفه السلطة، فيقوّض الخطاب الحقيقي الخطاب المزيّف، ويقدّم لنا النص الروائي الواقع في شكل "رومانس مضاد" حيث يعمل المتخيل على إبراز الواقع في الرواية في صورة أسوء من العالم الحقيقي، وكما تعمل الرواية على الحفر في الماضي تعمل على استشراف االمستقبل، "الأمور هنا ليست إلاّ صورة مصغرة عما سيحدث لنا لاحقاً، التعفن، سيتراكم، سيزحف، كالجراد، وسيمتد للداخل، ويقبض على زمام الأمور، سيصير الوجود مثل هذا الحي كياناً بلا روح، هشاً فارغاً، محشواً بالقذارة ورائحة العفونة، منذوراً لليأس والانحطاط، غامضاً ويعد بكل الشرور"[20].

فالخطاب الروائي في بنيته العميقة يبرز لنا ذلك الشروخ والضياع والتيه والانكسار الذي تعيشه الذات في ظل عالم مليء بالمآزق والاكاذيب، لذلك نجدها تنتقل زمنياً من الماضي لتبحث فيه عن الأسباب التي ولّدت هذه الأزمات، إلى المستقبل تنظر إليه بنظرة انكسار وترى فيه نتائج الماضي الأليم والحاضر الممزق. فقد عملت الثورة على تمزيق الفكر بين طبقات المجتمع، على عكس ما تروّج له السلطة في خطابها الذي يمجد السلطة ويقدّسها، هذا الأمر أدى إلى نتاج صراع إيديولوجي مضمر بين هذه الطبقات، وقد عبّرت عنه الرواية من خلال

تركيزها على بشاعة عالم السلطة ونزعتها التديميرية في تدمير المجتمع الجزائري في مرحلة كانت مرحلة بناء وتعمير.

الرواية جاءت لتعبر عن ذلك المأزق البشع الذي تعيشه الذات الجزائرية في عالم محكوم بحتمية السلطة، ينتقل من سيء إلى أسوء "البلد تتغير بسرعة... نعم تتغير، تنتقل من السيء إلى الأسوأ، لهذا أطلب منك العناية بنفسك"[21]، فالذات تعيش في ظل زمنية متشظية، يفقد فيه الفرد ذاته وكينونته بفعل سيطرة السلطة واستبدادها، وبفعل تحولات الواقع التي لا تنذر بالخير أبداً، وكأن الذات تعيش نوعاً من الكاوس أو فقدان البصيرة، ولهذا وجدنا شخصية "رضا شاوش" تعيش نوعاً من الكاوس، مما جعلها شخصية متحولة بمفهوم "كافكا"، فسيطرة السلطة ونزعتها التديميرية جرّدت الذات من كل قيمها العليا ومبادئها ومثلها، فأصبحت الذات تعيش نوعاً من الكاوس، فكيف تحوّلت هذه الذات من الخير إل الشر؟ من النور إلى الظلام؟

ثانياً: الذات بين ثنائية السقوط/الارتقاء

النص الروائي مساحة ثقافية مكتظة بالعلامات النسقية المضمرة المختبئة تحت عباءة الجمالي، فلا يكاد يخلو خطاباً روائياً من هذه المضمرات المرتبطة بالدين والسياسة والتاريخ والهوية والجنس وغيرها من الأمراض الفكرية التي أصابت الانسان المعاصر، فالروائي بحكم انه فرد من المجتمع وله من الإمكانيات ما يميزّه عن أفراد المجتمع في النظر إلى هذه الأمراض، محاولاً تشخيصها وأحينا معالجتها، يأتي الروائي "بشير مفتي" كطبيب نفساني واجتماعي يحاول ان يشخّص تلك الأمراض، ويقترب من الواقع الجزائري في فترة زمنية حرجة إن لم نقل "مريضة"، كما يقدّم لنا الروائي صوراً لشخصيات متأزمة نفسياً ومقهورة عاطفياً ومهمشة اجتماعياً، ليبرز لنا بشاعة الفترة التي يمثّلها الخطاب الروائي.

لقد بنى الروائي روايته على بنية انتهاكية ، وفي زمنية متشظية لذات متلاشية، هي ذات "رضا شاوش"، حيث تتدحرج الذات خارج المركز نحو المجهول منشطرة بين ما كانت عليه وماهي عليه وما ترغب ان تكون " مع مرور السنوات شعرت انني تحوّلت، صرت شخصاً آخر، يجب ان أؤكد هذه الحقيقة، وأنني في تلك اللحظة الزمنية المدنّسة فقدت روحي..... ، إنّ

كل الأفكار لا معنى لها، ستخرج الغريزة، ستحول الإنسان إلى بشاعة مطلقة، وشر مطلق، وخراب مطلق، يتحول إلى كائن آخر، كائن ممسوخ، لا دهشة في قلبه، لا سؤال في عقله، كائن مشوّه تصنعه ظروف الفقدان تلك"[22]. فما تركز عليه الرواية في بناء نموذجا الإنساني هو مفهوم "التحوّل" و"المسخ" بالمفهوم الكافكاوي، إذ تروي الرواية القلق الوجودي للشخصية البطلة ومساراتها ومحطات تحوّلها، إذ تتحوّل الشخصية من شخص مثالي رومانسي يحب الأدب والكتابة إلى شخص متوحش قاتل، ويتم هذا التحوّل الكارثي على مراحل، في كل مرحلة يفقد البطل جزءاً من انسانيته، إنّها رواية تكوّن الشخصية وتحوّلها، ولكن في الآن ذاته تعبّر تلك التحولات والمحطات التي تمرّ عليها شخصية "رضا شاوش" عن شهادة تاريخية على مرحلة تاريخية مهمة هي مرحلة بناء الدولة الجزائرية المستقلة.

ومن خلال تحليل تحوّلات الذات وتغيراتها، تطفو على السطح مجموعة من المضمرات الثقافية والسياسية المكتنزة في اللاوعي الجمع للأمة الجزائرية وللفرد الجزائري. ويمكن ان نلخص حياة "رضا شاوش" في مرحلتين مهمتين:

- مرحلة السقوط على مستوى المادة والمنصب الاجتماعي والظروف الاجتماعية يقابلها صعود وارتقاء على مستوى الروح والقيم والمبادئ والاخلاق.

- مرحلة الصعود والارتقاء على مستوى المادة والنفوذ والمنصب الاجتماعي يقابله سقوط على مستوى الروح والقيم والمبادئ والاخلاق.

إنّ هذه الذات من خلال مسار تحوّلها تبحث عن هويتها التي اضاعتها تحت أنقاض إرادتها التي أسدلت ستارها على إنسانيتها وسلبتها ذاكرتها البريئة، فقد وصل "رضا شاوش" إلى قناعة أن الإنسان لا يقدر على تحمل المهانة في بلده محتقراً وضعيفاً، ولا شيء يسنده عندما تضيق به الطرق وتسد في وجهه الأبواب، فحولته إلى رجل يمتص دماء الآخرين ويزهق أرواحهم كي يعيش، إنّه يعبّر عن نفسه.

يبدأ مسار البطل شخصاً مسالماً محباً للأدب والعلم والمعرفة، شخصاً رومنسياً، بفضل معلمته التي تأثّر بها كثيراً، إذ لعبت دورا كبيرا في بداية حياته الاولى، "كانت معلمة العربية امرأة ودودة للغاية، وتتكلم كما لو انها نبية أرسلت لإخراجنا من الظلمات إلى النور، على عكس المعلمين الآخرين لم تكن تستعمل العنف، كانت طريقتها ان تجعلنا نحب ما نقرأ،

ونعجب بكل ما نفعله، وكانت في كل خميس تهدينا كتباً للقراءة، كتباً صرنا نتلذذ بها، وهي تعدنا بمغريات كثيرة إن نحن قرأناها كما يجب"[24]، ومن هنا تبدأ غواية القراءة تسكن ذات البطل، بحيث جعلت منه شخصاً مجنوناً بالقصص والروايات والخيالات حتى تحوّلت حياته إلى قصة مروعة، "كان يعمل أبي في مؤسسة العقاب كما سميتها أنا لاحقاً، تيمناً بصديقي "كافكا"، والذي بدأت قراءته باكراً وأنا في العاشرة من عمري، عندما اهدتني معلمة العربية قصة " المسخ"، ومن يومها لا أدري ماذا حدث في رأسي؟ سكنتني ذبابة الأدب كما جنون القصص والخيالا..."[25]، لقد ساعدت القراءة والمعلمة البطل في بدايات حياته أن يكون شخصاً ايجابياً مسالماً مثقفاً، هذا ما ولّد فيه الرغبة في السمو والاختلاف عن أبناء جيله، "كُنت أستفيد منها بشكل رائع، وأنا أشعر بزهو لا نهائي لم أعرفه قط من قبل، زهو كان يجعلني أشعر أنني خرجت من القطيع، وصرت بفضل ما أقرأه متميزاً عن غيري، جد مختلف، وكانت معلمتي هي محو كلامي كله بعد ان أخرج من المدرسة (...) كنت اتمنى سراً لو كانت معلمتي هي امي بالفعل، تحسن الحديث بلغة جميلة تجعلني أؤمن بأشياء كثيرة، وأقتنع بأنّ جمال الحياة هو الحياة نفسها... ان تعيشها وتحبها، وتتذوق كل ما فيها من متع وملذات"[26].

أما على المستوى الاجتماعي والثقافي، نلاحظ أن البطل تجاوز النمطية وتحلّى بالكثير من الإيجابية والوعي فهو يسعى جاهداً أن لا يشبه والده، وهذا مخالف للنسق السائد في المجتمعات العربية، والتي ترى أنّ الولد يجب أن يكون صورة عن والده، وانّ والده هو النموذج المثالي الذي يقتدي به، غير أنّ النسق السائد تجدّر في لاوعي الكاتب ولاوعي الشخصية أيضا وطفا على السطح، ليسلك الابن الطريق ذاته الذي سلكه والده، إنه انعكاس لنسق اجتماعي ممتد على امتداد التاريخ العربي، ارتبط بتشابه الولد بوالده. وليؤكد البطل هذا التجاوز للعرف السائد، ينضم لجماعة تسعى إلى تحقيق العدل والمساواة، معارضة بذلك النظام أو الجهاز الذي يتحكم في البلاد والعباد، إنّ هذه الايجابيات التي تميّز بها البطل في بداية مساره الاول تبيّن لنا ذلك الارتقاء الذي وصل إليه البطل على مستوى الروح والقيم والاخلاق والمبادئ، فقد كان شخصاً يؤمن بمستقبل أفضل رغم السوداوية التي عرفتها تلك الفترة، فقد كان رضا شاوش يسعى ليكون "شخصاً جديداً، مؤمناً كل الإيمان بانّ هناك مثالاً

عادلاً يجب ان يتحقق فيّ من الداخل، وبأنّ الحياة مفتوحة على أنقى الأشياء وأجملها، إنّ الحياة تستحق أن نحيا من أجلها ولأجلها"[27].

إلاّ أنّ هذا المسار الرومانسي الإيجابي يتعرّض لزلزال عنيف، فتتحول الذات من الإيجاب إلى السلب، ومن الخير إلى الشر، ومن النور إلى الظلام، بفعل تغيرات ذاتية واجتماعية وسياسية مختلفة، فمن إخفاقه في الحب والذي يعتبر نقطة التحوّل الاولى في حياته، إلى اخفاقه في الدراسة، وعقدة الأب المتسلط التي بقيت تشتغل في اللاوعي، إلى الاغتصاب ثم القتل وغيرها من الأفعال التي جعلت الشخصية تعيش حالة شروخ حقيقية، وحالة تمزّق وضياع وانكسار، ليكتمل التحوّل ويبلغ مداه بانخراط "رضا شاوش" في جهاز الحكم ويصبح واحد منهم، يتحكم في دواليب الحكم، ويتحكم في أرزاق الناس وفي حياتهم وموتهم.

إنّ هذا التحوّل يجعل البطل في حالة تناقض دائم، فمن حالة الارتقاء على صعيد النفود والمال والمنصب نرى سقوطاً على مستوى القيم والاخلاق والمبادئ، إنّ هذا الصعود يمثّل لنا مفارقة ساخرة:

ارتقاء على مستوى المال/ النفود/ المنصب ≠ فقدان الروح والقيم وتهاوي الأخلاق إلى الأسفل.

من خلال هذه المفارقة ينبني الخطاب السردي في بنيته العميقة على استراتيجية القوة والرغبة، فالذات تسعى إلى تحقيق كينونتها من خلال امتلاكها القوة، هذه القوة التي لا تمتلكها إلاّ بانخراطها في " جهاز الدولة"، والتخلص من كل المبادئ والقيم والترسبات المكتسبة من الماضي، لذلك كان اوّل شيء قام به "رضا شاوش" هو التخلص من تبعية الماضي، "فلقد قررت أيامها ..... ويعيش بلا ضمير"[29]. ويمكن ان نشخّص لهذه الحالة من المنظور السيميائي، فالذات تحاول جاهدة الاتصال بموضوع القيمة المتمثل في –تحقيق الذات- من خلال الانضمام "لجهاز الدولة"، إلاّ انّ هذا البرنامج يفشل، ذلك أنّ الانضمام لجهاز الدولة لم ينقلها إلى حالة اتصال بموضوع القيمة أي –تحقيق الذات-، بل نتج عنه تحوّل ومسخ وانتقال من حالة هدوء إلى حالة فوضى، حيث تشكّل قمة العود بداية السقوط.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، ما علاقة تحوّل البطلة بالسلطة؟

إنها سخرية القدر التي تعبث بحياة ومصير "رضا شاوش"، وهنا يستعير المتخيل الروائي صورة دراكولا ليصف هذا التحوّل، " لقد بدا لي العالم حينها واسعاً بلا حدود، ومفتوحاً على احتمالات لا نهائية، ومثل دراكولا الذي تخلقه حالة انعدام التوازن بين النهار والليل ..... تلك هي طبيعته الجديدة ونوعه الجديد"[31].

إنّ هذا التحوّل الذي تعرض له بطل الرواية يحمل في بنيته العميقة العديد من الأنساق المضمرة، كما لا ننسى ان هذا التحوّل يتموضع على العديد من الدلالات، فهو يعبّر لنا بصورة ضمنية عن الفساد والظلام الذي تعيشه فيه المنظمة/ المؤسسة الحاكمة، فالبطل كان يعيش حالة استقرار تام في مرحلة ما قبل الانضمام للجهاز، وبمجرد انضمامه للجهاز يتحوّل إلى حيوان مفترس يعيش بامتصاص دماء الآخرين، فالذات تتمزّق وتعيش حالة غربة وضياع وتشتت، حيث يصبح لها كل شيء مباح، فتنفتح على القتل والاغتصاب والوشاية والخمر وغيرها من المحرمات، هذه التغيرات تبيّن لنا سيطرة إيديولوجيا السلطة على الذات، وتبين لنا البعد الإيديولوجي للفساد، بمعنى آخر، إنّ هذا التحوّل مرتبط بالسلطة، ومن ثمة تصبح الذات عرضة للكاوس (فقدان البصيرة)، ويصرّح البطل في ثنايا النص بأنه أصبح عرضة للكاوس، " كنت ألجأ في تلك اللحظات التي تضيق فيها فسحة الرؤية ويعجز البصر عن النظر بعين مدققة، وتفقد البصيرة وضوح حدسها، إلى الذي صار عندي بمثابة أبي الروحي"[32]، فقد عملت السلطة على تدمير الجانب الروحي في الفرد الجزائري في تلك الفترة من الزمن ومحو إنسانيته وقيمته وكيانه، فجعلت منه دمية تحرّكها في أي اتجاه تريد، كما تجرّده من كل أحاسيسه ومشاعره الانسانية، فيصبح الحرام وحلال، والممنوع مرغوب، والقبيح جميل، فتنقلب الموازين ويعاد ترتيب الأشياء في العالم وفق ما تريده السلطة، إنّ الرواية استطاعت ان تفضح فساد المؤسسة الجزائرية وتعريّها، عن طريق ربط الماضي بالحاضر، وتداخل الخيالي بالحقيقي، فقد جمعت الرواية بين التاريخ الرسمي الذي تفرضه السلطة على المجتمع وتجعل منه شيئاً مقدساً يضمن مشروعيتها واستمراراها وبين الوضع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي للبلاد، فبرز ذلك الشروخ والتناقض بين هذين الخطابين، كما برز تناقض على

مستوى شخصية "رضا شاوش" التي عاشت حالة من الضغوطات النفسية والاجتماعية والسياسية فساهمت في تحويل مسار حياتها، وجعلها تعيش حالة " فقدان الذات.

لقد استطاعت رواية "دمية النار" في بنتها العميقة ان تبرز لن ذلك الصراع الخفي بين الخير والشر، بين النور والظلام، كما برزت لنا ان الانتقال من الخير إلى الشر ما هو إلاّ لحظة طفيفة كما بين الحلم واليقظة، كما تنبني الرواية في نموذجها الإنساني على فكرة " التحوّل" بالمفهوم الكافكاوي، هذا التحوّل الذي يأخذ صيغة المسخ، وكأن الذات في حالة لاوعي تام، حيث تجسد لنا شخصية "رضا شاوش" هذا التحولّ، فتتحول الشخصية من إنسان مثقف محايد يحب الأدب والمعرفة والعلم إلى انسان متوحش، وكما تصفه الرواية " دراكولا" يعيش على امتصاص دماء الآخرين، هذا التحوّل يحدث في نقطة مهمة في مسار البطل، وهي انضمامه لجهاز الدولة، ذلك الجهاز الخفي الذي يحكم البلاد والعباد من وراء حجاب، فيعتبر انضمام " رضا شاوش" للنظام نقطة فارقة في حياته وفي الرواية ككل، فهو يتحولّ إلى دمية نار تحرُق كلّ من يلمسها، دمية يتحكم فيه من هم في قمم ذلك الجهاز أو العصابة كما سمّاه "رضا شاوش" في بدايته الأولى، حيث يفقد البطل قيمته وكينونته وهو يرتقي في سلم السلطة، حيث يفقد البطل ذاته وقيمه ومبادئه، حيث يحدث فعل عكسي في حياة البطل، فنجده وهو شاب لا يملك لا سلطة ولا عملاً ولا مالاً ولا دراسة يرتقي في سلم النقاء والصفاء والحب والسلام والأخلاق، ولكنه يفقد كل هذا أو يسقط إلى بحر الخيانة والاغتصاب والقتل وهو يصعد سلم المال والسلطة والنفود واتخاد قرارات البلاد والعباد. إنّ هذا التحوّل في مسار البطل يوازيه تحوّل آخر ولكن في مسار بناء البلاد، فتلك التحوّلات والتغيرات التي تطرأ على البطل "رضا شاوش" وهو يعيش تفاصيل حياته، تنعكس بالصورة ذاتها على الوطن، فيعود الروائي من خلال هذا النص إلى التاريخ الجزائري من فترة ما قبل الاستقلال إلى الاستقلال ويزيح الستار عن ذلك المسكوت عنه، والذي زجّ بالبلاد في دهاليز مظلمة ما زلنا نتجرع ألمها إلى يومنا هذا.

لقد جاءت الرواية بصيغة التقويض والنفي، ففي مقابل التاريخ الأحادي "الثورة" الذي تبسطه الدولة تحافظ عليه يبسط الروائي من خلال شخصياته وأحداثه تاريخاً مضاداً، يكشف على التواريخ المنسية ويعيد إحياء الذاكرة الشعبية ويسمع صوت المقموعين والمنبوذين

في القاع "شخصية عمي العربي" و "شخصية والد سعيد بن عزوز" فتأتي الرواية بصيغة انتقادية لاذعة تدين السلطة وترفضها، فتبرز الرواية ذلك الشرخ العميق الذي أصاب الشعب الجزائري، وتلك الفجوة العميقة التي أبعدت المسافة بين الشعب وسلطته، فمن خلال ثنائية النفي والسخرية يبني الروائي خطابه تجاه السلطة، فهو ينفي مشروعية السلطة اليت بنتها من مشروعية الثورة، هذه الثورة المزيفة التي تخدم مصلح البعض وتكون نقمة على البعض، كما أنه يسخر من خطاب السلطة التي اتخذت من الصحافة صور الصين العظيم.

وهكذا راح "بشير مفتي" في روايته "دمية النار" يعرّي السلطة وخطابها ويزيح الغطاء عن المستور، ويكشف المسكوت عنه، من خلال شخصيات مختلفة في تكوينها الثقافي والاجتماعي ومختلفة في نظرتها للوجود، حيث ركزّ الروائي على شخصياته خاصة من الناحية النفسية والفكرية والثقافية. هكذا جاءت الرواية متشبعة بهواجس السلطة والفرد والانا والآخر، وطرح العديد من الأسئلة والصراعات هناك ما يتعلق بصراع الذات مع ذاتها كما رأينا مع شخصية "رضا شاوش"، وبين الذات والآخر كما يجسده صراع "عمي العربي "مع "سلطة بومدين"، وصراع الذات مع الراهن، حيث تكشف لنا الرواية الضياع والتيه الذي تعانيه شخصياتها المختلفة، فمنهم من اختار المنفى وطناً له، ومنهم من اختار الهروب، ومنهم من دخل في دهاليز مظلمة.

هوامش البحث

1- بشير مفتي، دمية النار، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2010، ص 119-120.

2- بشير مفتي، دمية النار، ص 120.

3 - محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، ص 64.

4- بشير مفتي، دمية النار، ص 128.

5 - المصدر نفسه، ص 128.

6- المصدر نفسه، ص128.

7 بشير مفتي، دمية النار، ص 08.

8- المصدر نفسه، ص 37.

9 - المصدر نفسه، ص 101.

10- محمد بوعزة، سرديات ثقافية، ص 63.

11 - بشير مفتي، دمية النار، ص 37.

12 - بشير مفتي، دمية النار، ص 39.
13- المصدر نفسه، ص68.
14- محمد بوعزة، سرديات ثقافية، ص 78.
15 - بشير مفتي، دمية النار، ص 73.
16- بشير مفتي، دمية النار، ص 115.
17 - المصدر نفسه، ص 98.
18 - المصدر نفسه، ص 88.
19 - بشير مفتي، دمية النار، ص 105.
20 - المصدر نفسه، ص 105.
21- المصدر نفسه، ص 87.
22 - بشير مفتي، دمية النار، ص ص 118-119.
23 - بشير مفتي، دمية النار، ص 120.
24- المصدر نفسه، ص 29.
25 - بشير مفتي، دمية النار، ص 29.
26 - المصدر نفسه، ص 30.
27- المصدر نفسه، ص 119.
28- بشير مفتي، دمية النار، ص 121.
29 - المصدر نفسه، ص122.
30 - بشير مفتي، دمية النار، ص 120.
31 - المصدر نفسه، ص 120.
32 - المصدر نفسه، ص86.
33 - بشير مفتي، دمية النار، ص 153.